المحاضرة (08): النقد النفسي

تمهيد:

تحولت مسار الاهتمام في المقاربات النقدية من السياق الواقعي للكتابة الأدبية؛ إلى سياق الكاتب من حيث البحث عن شخصية الأديب في أعماله الإبداعية، والتعامل معها بصفتها وسيطا منتجا لعملية الخلق الفني، من هذا المدخل تكشفت مسألة العلاقة بين النص وصاحبه على أنها الموضوع الفعلي لما يعرف بالمنهج النفسي في النقد الأدبي، واستطاع هذا التوجه فرض حضوره الإجرائي في دراسة المنجزات الأدبية، وتسهيل محاولات تأويلها.

العلاقة بين الأدب والأحاسيس النفسية:

ترجع هذه العلاقة إلى أصول قديمة في فهم النماذج الأدبية من المداخل النفسية، فضلا عن أن تجلي الأثر النفسي في الأعمال الإبداعية قديم قدم الظاهرة نفسها، إلا أن ما اهتدى إلى الأعلام في تصوراتهم بشأن هذا الأثر لم تجاوز حدود المقولة أو الطرح الذي لا يرقى إلى مستوى التنظير النقدي.

– عند الغرب:

تناول الأصل الإغريقي هذه العلاقة؛ حيث ربط الفلاسفة العبقرية الأدبية بالمس والجنون، على أساس أن الشاعر التراجيدي تنتابه في لحظات الإبداع حالة من التوتر العصبي تجعله مختلفا عن الآخرين، ومع ذلك يتفوق عليهم من حيث قدرته على الإتيان بنماذج فنية لا يستطيعها غيره.

وفي محاولتهم فهم وتفسير الموهبة الشعرية اهتدى بعضهم إلى مقولة التعويض؛ فقيل أن ربة الشعر (Muse) أخذت نعمة البصر من "ديمودوقوس" (Demodocos) ومنحته موهبة الغناء تعويضا له، في حين منحت الكفيف "تايرسياس" (Tiresias) موهبة التنبؤ بالمستقبل، لكن هذا الربط بين المواهب الإبداعية والشعور بالنقص جراء فقد الملكات لا يصدق دائما؛ كما أن العجز لا يكون دائما جسديا فقد ينتج عن حالة نفسية أو اجتماعية[1].

أما أفلاطون (347 ق.م) في محاورته "أيون" فذهب إلى أن العبقرية الأدبية إلهام إلهي، و«أن الشعراء كلهم لا يؤلفون قصائدهم الجميلة بالفن، إلا لأنهم ملهمون وممسوسون...، لذلك فإن الله يسلب العقل من الشعراء، ويستخدمهم كممثليه، كما يستخدم أيضا وسطاء الوحي والأنبياء الأتقياء، وهم ينطقون بكلمات بالغة النفاسة، أما

[1]– ينظر: رنيه وليك وآوستن وآرن، نظرية الأدب، تر. عادل سلامة، دار المريخ للنشر، الرياض، المملكة العربية السعودية، 1992، ص113.

القصائد الجميلة فليست إنسانية، ولا من صنع الإنسان، بل هي إلهية والله صانعها، إن الشعراء هم مفسرو الآلهة والمتكلمون من قبلهم، كل بمفرده»[1].

سيطرت هذه الأفكار على التفسير النقدي لظاهرة الإبداع الفني قديما؛ على أساس أن الآلهة هي المصدر الأوحد للفن، أما النفس البشرية ليست إلا وسيطا ينطق بلسانها، ولا يخلو هذا التصور من وجود أثر نفسي يتعلق بمسألة الاعتقاد والإيمان بالغيبيّات.

وفي سياق القول بمحاكاة النموذج الإبداعي للواقع؛ وأنهما على اختلاف بينهما من حيث الطبيعة؛ تطرق "أرسطو" (322 ق.م) إلى «ما يعرف بالتطهير (Catharsis)؛ وهو القول بأن مشاهدة الأعمال المسرحية تؤدي إلى تطهير نفسية المشاهد من العنف والجريمة والانحراف عن طريق إثارة مشاعر الإشفاق لديه، والخوف من العقوبة التي تنزلها الآلهة في البطل التراجيدي»[2].

ويربط تطهير النفس لدى المشاهد بالنهايات المسرحية المأسوية، حيث يحصد البطل ثمار أفعاله السلبية التي يرفضها العرف الاجتماعي، وبما أن هناك جريمة فإن العقاب سيكون حاضرا بالضرورة، وهذا ما يحرّك مشاعر الخوف لدى المشاهد فيتراجع عن نزوعه السلوكي للانحرافات المشابهة، فتتطهر نفسه منها.

– عند العرب:

تطرّق العرب قديما إلى مسألة وجود آثار نفسية لدى الشاعر، تدفعه إلى نظم القصائد؛ حيث يقبل عليه الإلهام إقبال السيل الدفق، وإذا ما تراجعت هذه الآثار قلّ نظمه، وتأخرت همته، وللنقاد العرب في هذا الباب عدة مقولات، يمكن تصنيفها إلى ثلاثة اتجاهات؛ هي:

1- الدواعي النفسية لنظم الشعر:

فطن النقاد العرب قديما لوجود مجموعة من البواعث التي تدفع الشاعر لنظم الأشعار، فلا يتسنى له ذلك دونها، وهو ما يتصل بحالات النفس وعللها وأسبابها؛ وقد ذكر "ابن قتيبة" (ت. 276 هـ) بعضا منها فقال: «وللشعر دواع تحث البطيء وتبعث المتكلّف، منها الطمع، ومنها الشوق، ومنها الشراب، ومنها الطرب، ومنها الغضب»[3].

[1]– أفلاطون، المحاورات الكاملة، مج3، تر. شوقي داود تمراز، الأهلية للنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، 1994، ص10.

[2]– إبراهيم محمود خليل، النقد الأدبي الحديث من المحاكاة إلى التفكيك، دار المسيرة للنشر والتوزيع والطباعة، عمان، ط4، 2011، ص55.

[3]– ابن قتيبة، الشعر والشعراء، تح. أحمد محمد شاكر، ج1، دار المعارف، القاهرة، مصر، (د.ت.ط)، ص78.

وأضاف فذكر حالات تحث الشاعر على النظم، والكاتب على النثر؛ فقال: «وللشعر تارات يبعد فيها قريبه، ويستصعب فيها ريّضه، وكذلك الكلام المنثور في الرسائل والمقامات والجوابات، فقد يتعذّر على الكاتب الأديب وعلى البليغ الخطيب، ولا يُعرف لذلك سبب، إلا أن يكون من عارض يعترض على الغريزة من سوء غذاء، أو خاطر غم»[1].

اهتدى الناقد إلى وجود علل يمكن أن يفسّر بها تفاوت الأشعار من حيث الطبع والتكلف، فظهر له أن من الشعراء ما يدفعه إلى النظم طمعه، أو شوقه، أو طربه، أو غضبه، أو غيابه عن الوعي جراء معاقرة الخمر، أو مرضه، أو حزنه، وأن له في نظم القصائد شؤون يستجيب لها بقدر ما تستجيب له النفس وترغب.

2- صلة الشاعر بأوقات خاصة للنظم:

هناك أوقات للنظم تحثّ الشاعر، وقد يعجز دونها؛ كشف عنها ابن قتيبة، فقال: «للشعر أوقات يسرع فيها أتِيُّه، ويَسمح فيها أبِيُّه؛ منها أول الليل قبل تَغَشِّي الكَرَى، ومنها صدرُ النهار قبلَ الغَدَاء، ومنها يومُ شرب الدواء، ومنها الخلوةُ في الحبسِ والمسير؛ ولهذه العلل تختلف أشعار الشاعر، ورسائل الكاتب»[2].

وأشار "ابن رشيق القيرواني" (ت. 456 هـ) إلى فكرة أن لكل شاعر فترة؛ وأنه «لابد للشاعر –وإن كان فحلا، حاذقا، مُبَرزا، مقدما– من فترة تَعْرِض له في بعض الأوقات: إما لشغل يسير، أو موت قريحة، أو نُبُوّ طبع في تلك الساعة أو ذلك الحين»[3].

إن ارتباط الشعر بأوقات معينة يتعذّر على الشاعر النظم في غيرها، مدعاة للتفسير النفسي؛ ذلك أن الفترة قد تفعل بنفس المبدع وأشعاره ما يعجز عنه دونها، وللشعراء في انفعالهم بالوقت أحوال؛ فيكثر شعر أحدهم أو يقل، وقد يتقدم فيه أو يتأخر.

3- الحالة النفسية للسامع:

تطرق "ابن قتيبة" إلى هذه المسألة بالنسبة للغرض الشعري في النظم؛ خاصة تلك الأغراض القائمة في النفس المقام الذي تفرضه الفطرة، ويميل إليه الطبع؛ فبعد أن مرّ الشاعر بموقف البكاء على الأطلال «وصل ذلك بالنسيب، فشكا

---

[1]- ابن قتيبة، الشعر والشعراء، ص80-81.

[2]- نفسه، ص81.

[3]- أبو علي الحسن بن رشيق القيرواني الأزدي، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، ج1، تح. محمد محي الدين عبد الحميد، دار الجيل للنشر والتوزيع والطباعة، سوريا، ط5، 1981، ص204.

من شدة الوَجْدِ وأَلَمِ الفِرَاقِ، وفَرْط الصبابة والشوق، ليُميل نحوه القلوب، ويصرف إليه الوجوه، وليَسْتَدْعِيَ به إصغاء الأسماعِ إليه؛ لأن التشبيب قريب من النفوس، لائط بالقلوب، لما قد جعل الله في تركيب العباد من محبة الغزل، وإلف النساء، فليس يكاد أحد يخلو من أن يكون متعلقا منه بسبب، وضاربا فيه بسهم، حلال أو حرام»[1].

يروق السامع من الأشعار ما لا يروقه من غيرها؛ لأنها وقعت في نفسه الموقع الذي تحبه وترضاه، خاصة الشعر الذي يخوض في أمور فُطر عليها الفؤاد، فكان أدعى لأن تقبله الأنفس وتستحسنه، وفي هذا تتفاوت الأشعار وتختلف، من حيث قوة التأثير في الانفعال ببلاغة التصوير.

الجهود العربية في النقد النفسي:

أقبل النقاد العرب على تطبيق مقولات النقد النفسي في دراساتهم لشخصيات الشعراء في أشعارهم؛ وقد وذهب بعضهم في هذا الدرس مذاهب عدة من التفسير القائم على الإفادة من تصورات التحليل النفسي، الذي انحرف بهم بعيدا عن مسارات الأثر الجمالي في الممارسات الشعرية.

درس إبراهيم عبد القادر المازني (1889-1949) شعر ابن الرومي؛ محاولا التماس أسباب الشذوذ لديه برد الأمر إلى شؤون قائمة في نفسه؛ معتمدا على أخبار الأوائل وما تناقلوه عنه من أخبار؛ فظهر له أننا «بإزاء رجل غريب ليس كالناس، وإلا فلو أن ابن الرومي كان غير شاذ، وكانت حاله مألوفة، وأمره غير خارج عما عهد أهل عصره، لما أنكروا من أموره شيئا، ولما وجدوا من أحواله داعيا إلى العجب»[2].

يتضح من هذا التفسير أن الحكم النفسي طال شخصية الشاعر أكثر من شعره، إلا أن النظر إليه على أنه إنسان غريب الأطوار، ونموذج بشري شاذ بالنسبة لأهل زمانه، قد لا يخلو من المبالغة التي يمكن ردّها بالعودة إلى إبداعه الشعري؛ حيث تتضح للناقد الرؤية النفسية الصحيحة في نقده للأعمال المدروسة.

وقدّم عباس محمود العقاد (1889-1964) دراسة عن ابن الرومي من الوجهة النفسية؛ استحسنها كثير من النقاد خاصة طه حسين (1889-1973) الذي قال فيها أنها: «من غير شك أحسن ما كتب عن ابن الرومي إلى الآن، وإن كان الأستاذ العقاد عُني بالشاعر أكثر مما عُني بالشعر، ولكن هذا نفسه فوز كبير، فشخصية ابن الرومي من أحسن الشخصيات الإنسانية التي يجب أن تدرس، وأنا حين أقول الإنسانية أعني ما أقول، فالباحثون يجب أن يعنوا بابن

[1]- ابن قتيبة، الشعر والشعراء، ص75.

[2]- إبراهيم عبد القادر المازني، حصاد الهشيم، المطبعة العصرية، مصر، ط2، 1932، ص354.

الرومي لا أقول في الأدب وحده، بل في الأدب والفلسفة وعلم النفس، فالعقاد في كتابه على عنايته بالشاعر قد أحسن إلى ابن الرومي، وأحسن إلى الأدباء المعاصرين إحسانا لا حد له»[1].

يظهر جليا الاختلاف في الحكم على شخصية ابن الرومي لدى بعض النقاد العرب، وهذا الاختلاف راجع إلى عنايتهم بالشاعر لا بشعره، كان هذا من أكثر المزالق شيوعا في النقد النفسي للأعمال الأدبية، وإن لم يمنع ذلك من وجود دراسات عربية جيدة في هذا المجال.

ويعدّ "عز الدين اسماعيل" أكثر ناقد عربي أجاد تطبيق المنهج النفسي في الدراسات النقدية، خاصة في كتابه "التفسير النفسي للأدب"؛ حيث توصل إلى استخلاص مجموعة من المبادئ التي يفترض حضورها في محاولة نقدية من الوجهة النفسية في تحليل الأعمال الأدبية؛ وهي تتمثل في[2]:

– تحليل العمل الأدبي في ضوء حقائق علم النفس، ومقولات التحليل النفسي للفن، وعدم الاكتفاء بالبحث في شخصية الأديب وأدبه.

– العمل الأدبي وليد اللاشعور؛ وما يشتمل عليه من رغبات مكبوتة تحث الأديب على ممارسة النشاط الإبداعي، بأسلوب خاص.

– معرفة حياة الأديب تساعد على فهم الأدب ونقده، مع عدم التركيز عليها على حساب الاهتمام بالمنجز الأدبي، وما يتميز به من قيم جمالية.

– ضرورة إفادة الناقد من مقولات علم النفس في التحليل الأدبي، أما الأديب فلا يعنيه ذلك؛ حتى لا تطغى السمة العلمية في أدبه.

– التحليل والتقويم؛ يقوم منهج الناقد على تحليل العمل الأدبي للحكم على القيم الفنية الخاصة به، وأن مهارة التقويم أو الحكم متصلة بشكل مباشر بمهارة التحليل.

– كل عمل أدبي قابل للتحليل المنهجي من الوجهة النفسية؛ فلا تستجيب لهذا النوع من المقاربة أعمال أدبية دون أخرى، بل تصلح لها جميعا؛ كونها تحمل بالضرورة أثرا من آثار النفس الإنسانية بصفتها المصدر الأول للإنجاز الأدبي.

[1]– طه حسين، من حديث الشعر والنثر، دار المعارف، مصر، ط1، 1953، ص154.

[2]– شايف عكاشة، اتجاهات النقد المعاصر في مصر، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1985، ص149-151.

خلاصة:

ينهض النقد النفسي في المقام الأول على مقولات علم النفس، إلا المبالغة في الأخذ بالأسباب والعلل النفسية في تفسيره العملية الإبداعية قد أضر بالمقاربة النقدية أكثر مما أفادها خاصة حين يتعلق الأمر بتغييب القيم الجمالية من التحليل النقدي، واتخاذ النص الأدبي وسيطا لتصديق الفرضيات السيكولوجية في حين أنه يمثل الموضوع الحقيقي لأي محاولة نقدية؛ أما السياق النفسي فليس إلا عاملا مساعدا على الوصول إلى المقاصد الحقيقية للمنجزات الأدبية.